خطبة في عيد الدستور

« تلاها في الاحتفال العام بقصر الباس الشام »

« الشيخ اسماعيل افندي الحافظ الشهير »

لم يمر على الأمة العثمانية يوم هو أوفر جمالاً ، وأكثر إقبالا ، من مثل هذا اليوم المجيد الذي أشرقت فيه كواكب سعدها ، في أفق مجدها ، باهرة الاضواء ، ساطعة اللألاء ،

في مثل هذا اليوم هبت نسمة قدسية ، من أفق العناية الالهية ، نزحت لها أعطاف ابطال الحرية ، من جمعية الاتحاد والترقي الفادية المفدية ، فنهضوا لاسترداد المفقود ، واصلاح الموجود ، بقلوب تمثل أقصى مراتب الحمية الملية ، وعزائم تناهض الدهر حزما ، وتغالب الايام ثباتا ، فأنقذوا الأمة من براثن الظلم ، ووضعوا عنها أغلال الغلبة والقهر ، وأطلقوا العقول من قيودها ، ونشروا الافكار من لحودها :

في مثل هذا اليوم شعر العثماني انه عضو عامل في أمة حية يسعد بسعادتها ويشقى بشقائها ، فهب من سبات غفلته ، وشمر يدأب في مصلحة أمته ، فرأى ان لا سبيل الى سعادته الا بالاتحاد ، وان لا تحقق للاتحاد الا بالإخاء والمساواة ، فتآخت ملل الامة وأديانها ، وتساوت شعوبها وعناصرها ، وتضامت أجزاؤها ، وتماسكت أعضاؤها ، واقبل المسلم يعانق المسيحي ، واليهودي يصافح الارمني ، والتركي يفدي أخاه العربي بنفسه ، والكردي يدافع عن الالباني بمهجته ، والكل موقن ان لا غنى له عن الآخر في حياته الاجتماعية ، وسعادته القومية ، في شكل يسحر الالباب بهاؤه ، ويأخذ بالقلوب بهجة ورواؤه ،

في مثل هذا اليوم تفجرت ينابيع حياة الامة فسرت في أجزائها المفرقة ، ودبت في أعضائها الممزقة ، فاتحدت أفرادها ، وتوحدت أعدادها ، وصدرت عنها أعمالها بإرادتها الكلية ، وحركتها الاختيارية ، فتوجهت متحدة نحو سعادتها الحقيقية ، متململة

من ظلام الباطل الى نور الحق ، ناهضة من حضيض التأخر الى يفاع الترقي ، معلنة بأطيب ألحان الحرية ، آيات العدل والانسانية ، تحت لواء الاخاء والمساواة :

في مثل هذا اليوم أعلن القانون الاساسي فقضى للأمة بنيل حريتها ووهبها نعمة الاستقلال وخول لافرادها ان يكون لهم رأي مقبول في ادارة شؤون مجموعها وهي نعمة تعد أساسا مكينا لسعادة مستقبلها، ورقي حقيقي تنهض اليه فتنال ماقدر لها من الكمال ، وما استعدت له بفطرتها من مظاهر الإقبال

نعمة دلنا الاستقراء وعلمنا التاريخ ان الامم التي تكون محرومة منها لايكون لها اجتماع حقيقي ولا سعادة صحيحة ، وان ظفرت باليسير من ذلك فما هو الا صورة خيالية تظهر بمظاهر وهمية ، لأسباب توجدها المصادفة والاتفاق ، ثم لا تلبث ان تذهب بذهاب أسبابها، شأن الحوادث الناشئة عن أسباب موقتة. نعمة قيضها الله لبعض الأمم فنالت بها من العز والمنعة والمجد والعظمة ما نشاهد آثاره ونسمع أخباره ، وحرمها بعضها فبقيت راسفة في قيود الجهل تائهة في بيداء الغباوة لا يرعى لها جانب ولا يحفظ لها حق ، فلا غرو ان تحتفل جميع الامة العثمانية يومها السعيد احتفالا يتجلى في أبهج مظاهر الزينة وأهنا مجالي الفرح ، ولا غرو أن تشرئب العقول لتعرف معنى هذه النعمة ونسبتها الى الهيئة الاجتماعية :

اختلف فيها أنظار الباحثين، وتنوعت منازع الناظرين ، فذهب بعضهم الى ان حرية الامة أو حكم نفسها بنفسها ليس هو حقا طبيعيا لها بل هو حالة اجتماعية يقتضيها طور من أطوار الامة وينبذها طور آخر وان الامم لا تستحقها الا اذا بلغت مرتبة مخصوصة من مراتب الاجتماع وانها قبل ان تصل في اجتماعها الى هذه المرتبة فلا حق لها بنيل حريتها ولا بالمطالبة بها كما انه ليس لحكامها ان يفوضوا لها شيئا من شؤون نفسها خشية ان تتصرف تصرفا يفسد حالها ويوجب طروء الخلل في ادارتها

وزعموا ان حالة الامة اذ ذاك كحالة الصبي قبل بلوغه فانه لا يجوز في نظر العقل السليم ان يطلق له التصرف في شؤون نفسه لئلا يفسد عليه أمره ويضطرب حاله ، وان ماهو للشيء بطبعه لا يتخلف عن ماهيته مع ان كثيرا من الجمعيات البشرية عاشت أزمانا

متطاولة وهي مملوك عليها أمرها، مستبد عليها في شؤونها، فكيف يكون حكم الامة نفسها بنفسها حقا من حقوقها الطبيعية وميزا من ميزاتها الفطرية

وذهب أهل البصيرة منهم الى ان حكم الامة نفسها بنفسها حق طبيعي ثبت لها يوم صح ان يطلق عليها لفظ أمة فهو وصف لازم لذاتها غير منفك عن ماهيتها وان من عمد الى سلبها هذا الحق فرداً كان أو جملة فهو كمن عمد الى سلب انسان حقه في استنشاق الهواء وتناول الغذاء، أو كمن قيد إنسانا عن حركته الطبيعية التي يهم بها بارادته ويباشرها بقدرته

واستدلوا على ذلك بان العقول السليمة متفقة على ان كل فرد من بني الانسان هو بحسب فطرته حر مستقل في حركته وسكونه واقدامه واحجامه وأخذه وتركه وان الشرائع السماوية والقوانين الوضعية قد حكمت بأن له حقا طبيعيا في ان يتصرف بشؤون نفسه كيفما شاءت إرادته ومال اليه اختياره وان الباحثين في تعريف ماهيات الاشياء وتحديد طبائعها قد عرفوا الانسان بأن الحيوان الناطق بطبعه المتحرك بإرادته

وان الأمة لما كانت عبارة عن جملة أفراد مجتمعة بروابط من المصالح المشتركة والصفات الشاملة فقد وجب ان يثبت لمجموعهم من الحق ما ثبت للفرد الواحد منهم

إذا كان العدوان على حرية شخص واحد يعد شذوذا عن قواعد العدل وفسوقا عن أوامر الله وخروجا عن حدود الانسانية وهو لم يتعد ان اضر فردا بعينه لا تتوقف عليه سعادة ولا يناط به شقاء فما بال العدوان على حرية أمة كبيرة قد تكون مؤلفة من ملايين من مثل ذلك الفرد لا يعد شذوذا عن منهج العدل ؟ بل كيف يعد ذلك من نتائج الصواب ، وحكمة أولي الالباب ، لعمري ليس هذا المذهب الا من وساوس المستبدين الذين لا يروق لهم الا الاثرة بحقوق الضعفاء ، والتلاعب بعقول الاغبياء، وان الحكم على أمة مجتمعة بأنها غير جديرة ان تحكم نفسها بنفسها لأبعد عن الصواب من الحكم على الرجل العاقل انه غير أهل للتصرف بشؤونه الخصوصية

هل يبلغ الجهل والقصور بمجموع يستقل أفراده بشؤون أنفسهم ان يعجزوا جميعا عن تدبر شؤون مجتمعهم ؟

ان حد التمييز والرشد في الأمة هو ان تكون بحيث يتهيأ لها الاجتماع بأبسط معانيه فانها متى بلغت هذه المرتبة حكم لها بأنها بالغة رشدها قادرة على ادارة نفسها وكل جمعية بشرية فهي بالغة هذه المنزلة لا محالة ضرورة أن الانسان خلق على أن يعيش مجتمعا فهو لا ينفك عن الاجتماع والأمة المجتمعة لا تنفك ان تكون مستحقة للاستقلال بطبعها وانما تحول دون ذلك اطماع المستبدين احيانا فاذا اتفق لأمة أن صرفت همة المستبدين من رجالها عن العبث باستقلالها فقد قضي لها ان تباشر السير الى كمالها

لا يشترط في نيل الأمة حريتها واستحقاقها لذلك بطبعها ان تبلغ في اجتماعها مبلغ الامم الراقية كما لا يشترط في بلوغ الرجل رشده ان يكون كأصوب الرجال رأيا وأكملهم رشداً لأن الرقي والرشد يقالان بالتشكيك فيكونان في بعض الاشخاص وفي بعض الأمم أرقى منهما في غيرهما ولا يوجب ذلك قصرا بالمقصر عن درجة المتقدم يؤدي الى حرمانه من حقوقه الطبيعية

اذا نالت الأمة حقها في حكم نفسها افسح لافرادها مسرح الفكر ، واتسع لهم مجال العمل ، ودبت فيهم حياة جديدة شعروا بها ان لاراداتهم وميولهم تأثيرا في رقي مجتمعهم ، فترفعت بذلك نفوسهم عن الدنايا ونهضت الى معالي الامور وانصرفت من هنا الى الشعور بأن الفوز بالمصلحة الخاصة متوقف على تأييد المصلحة العامة فاندفعوا بسائق محبة الذات الى التماس مصلحة افرادهم في ضمن مصلحة مجموعهم

ومن ثم تخرج العقول من مضايق اشخاصها الى متسع الأمة وتنصرف الافكار عن البحث في الكليات فتمرن على الاستنتاج الصحيح من المقدمات اليقينية فتستقيم الافكار وتصان الاعمال عن الخلل

ويتبع ذلك صحة في العزائم ونهوض في الهمم ومسابقة الى الاعمال الشريفة وتنافس في إصابة المفيد منها للأمة . هكذا ينبغي للامم ان ترتقي في مدارج اجتماعها مبتدئة بالفكر الصحيح ومنتقلة من ذلك الى الصالح لها الموافق لمصلحتها ثم تتدرج من هناك في مراتب الكمال مرتبة بعد مرتبة ! ومن أين للأمم التي ليس لها حظ من الحرية ان تنال هذه المزية ؟

اذا تقرر هذا علم ان نيل هيئة اجتماعية لحريتها بعد مهيأ لرقيها ومقدمة لتقدمها او مرتبه اولى من مراتب كمالها فاذا توقف نيل حريتها على بلوغها مرتبة القدرة التامة على ارادة شؤونها فقد كلفناها ان تأتي النهاية في البداية ، وتصل في مبدأ سيرها الى الغاية ، وهو باطل في نظر العقل ، ومحال بحكم الواقع

(يرد هنا نبوغ الأمة الاسلامية بعد الخلفاء الراشدين الى زمن المعتصم ورقيها وفيها من المستبدين مثل يزيد وعبد الملك والمنصور والرشيد ونبوغها ايضا في دولة بني عثمان من زمن مؤسسها الى زمن السلطان سليمان القانوني والجواب عن هذه يستغرق بحثا طويلا لا يتسع الوقت له الآن فنرجئه لفرصة أخرى)

ومهما يكن الامر فلامراء في أن حرية الأمة هي مبدأ حياتها الاجتماعية وان الناهضين في كل أمة لإيصالها الى هذا الحق هم صفوة رجالها ، والنوادر من ابطالها بل هم القبيل الذين رآهم الاقدمون فحسبوا انهم ممتازون عن البشر فاقاموا لهم التماثيل وشيدوا لهم الهيا كل وافردوهم بالعظمة والكرامة حتى وضعوهم بمصاف الالهة فلا عجب ان تحتفل الامة العثمانية اليوم بنيل حريتها وتترنم بآيات الثناء لاولئك الابطال العظام من جمعية الاتحاد والترقي فتحيي الجمعية فليحي السلطان الدستوري فليحي المنقذ الثاني للوطن محمود شوكت باشا فليحي الجيش المظفر

* * *

عيد الدستور بمصر

انشدنا محمد حافظ افندي إبراهيم لنفسه في ليلة الاحتفال بهذا الموسم في حديقة الازبكية بمصر هذه القصيدة

أجل هذه أعلامه ومواكبه ... هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه
هنيئاً لهم فالكون في يوم عيدهم ... مشارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شمله ... ونمت على عهد الرشاد رغائبه
تحالف في ظل الهلال إمامه ... وحاخامه بعد الخلاف وراهبه
خذوا بيد الاصلاح والامر مقبل ... فاني أرى الاصلاح قد طرّ شاربه

وردوا على الملك الشباب الذي ذوى ... فاني رأيت الملك شابت ذوائبه
فمن يطلب الدستور بالسوء بعد ما ... حمته يد الفاروق فالله طالبه
اذا شوكت الفاروق قام منادياً ... الى الحق لباه نيازي وصاحبه
ثلاثة آساد يجانبها الردى ... وإن هي لاقاها الردى لاتجانبه
يصاوعها صرف المنون فتلتقي ... مخالبها فيه وتنبو مخالبه
روت قول بشار فثارت وأقسمت ... وقامت الى عبد الحميد تحاسبه
« اذا الملك الجبار صعّر خده ... مشينا اليه بالسيوف نعاتبه »
وسار على أعقابها كل سابح ... على متنه برج مشيد يداهبه
يصيح به « لاريّ » أو نبلغ المنى ... و« لاشبع » أو يُرجع الحق غاصبه
هنالك فانهل واتخذ ثم مربطا ... يبلذ واحد في الوغى من تصاحبه
رجال من الايمان ملأى نفوسهم ... وجيش من الأتراك ظمأى قواضبه
صوارمه سمر القنا وسكراته ... رءوس الاعادي والحصون ملاعبه
اذا ثار دكت اجبل وتخشعت ... بحار وأمضى الله ماهو كاتبه
وتُلك عروش واستقرت ممالك ... ولو ان ذا القرنين فيها يناصبه

* * *

فمن لم يشاهد يلدزاً بعد ربها ... وقد زال عنه الملك واندك جانبه
واسلمه أحبابه لقضاته ... وفر ولم يخش المعرة كاتبه
وقلت الاقدار اظفار بطشه ... ودل على ماتجهل الجن حاجبه
فما شهد الدنيا تزول ولا رأى ... بلاء قضاء الله في من يحاربه
ابيح حماها وانطوى مجد ربها ... وقامت على البيت الحميدي نوادبه
ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه ... ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يحمه حصن ولم ترم دونه ... دنانيره والامر بالامر حازبه
ولم يخفه عن اعين الحق مخدع ... ولا نفق في الارض جمّ مساربه
أقام عليه مهلكا عند مهلك ... يمر به روح الصبا فيوائبه
تحاماه حتى الوهم خوف اغتياله ... فلو مسه طيف لدارت لوالبه

وأسرف في حب الحياة فغاظها ... بسور من الاهوال لم يخ راكبه
ففي كل قفل للمنية مكمن ... وفي كل مفتاح قضاء يراقبه
وفي كل ركن صورة لو تكلمت ... لما شك في عبد الحميد مخاطبه
تخايل ايهام أتيت وأقعدت ... تراءى بها اعطافه ومناكبه
تمثله في نومه وجلوسه ... وتخدع فيه الموت حين يقاربه
أقام عليه ألف موت عجيب ... ليغلب موتاً واحداً عز غالبه
ساوه أأغنت عنه في يوم خلعه ... عجائبه أو أحرزته غرائبه
وقد نزل المقدار بالأمر صادعا ... وضاقت على شيخ الملوك مذاهبه
وأخرجه من يلدز رب يلدز ... وجرده من سيف عثمان واهبه
وأصبح في منفاه والجيش دونه ... يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم ... فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
هم منحوك اليوم ما أنت مشتر ... فرد لهم ما أنت بالأمس سالبه
ودع عنك ما أملت ان كنت حازما ... فلم يبق للآمال فضل نجاذبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه ... وولت أفاعيه وماتت عقاربه

* * *

فك الله يا تموز إنك بلسم ... لجرحى الأسى والدهر تعدو نوائبه
فكم رعت جبارا وأرهقت ظالما ... وانصفت مظلوما توالت مصائبه
فديناك من شهر أغر محجل ... أوائله ميمونة وعواقبه
تقابله الاعياد في الأرض كلما ... تجلى هلال الشهر أو لاح حاجبه
ففي الغرب عيد ينظم الغرب حسنه ... فتهتز من وقع السرور جوانبه
وفي الشرق عيد لم ير الشرق مثله ... تدفق في دار السلام مواكبه
يطيفون بالعرش الكريم وربه ... تطيف بهم آلاؤه ومناقبه
تهنئ أمير المؤمنين محمداً ... خلافته فالعرش سعد كواكبه
تسلك أمواج البحار سفينه ... كما ملكت شم الجبال مكاتبه
مملكة محروسة وثغوره ... وكتائبه منصورة ومراكبه

وأرسل الينا اسماعيل بك عاصم المحامي المصري هذه القصيدة من الاستانة

عيد عز الدستور بالامن أنضر ... نوره للأنام أنقى وأكبر
آلَ عثمان هاكم اليوم يوم ... طلق القلب فيه بشرا وكبر
يوم عيد الحرية التي كم بتـ ... ـنا زماناً لبعدها نتحسرَ
كل حرية بغير حماة ... لا يراعي زمامها من تجبر
ولهذا جاء الرشاد ليحمي ... ها فكانت لعصره خير مظهر
يا أميرا للمؤمنين وسلطا ... ن جميع الشعوب لا فرق يذكر
كل هذي الاقوام ترجوك في تـ ... ـوطيد ما فاتك أنت بالعدل أقدر
انت أدرى يا صاحب الملك بالما ... ضي قادرك بحزمك الملك تشكر

* * *

يا رجال الوزارة العيد هذا الـ ... ـوقت في هوله كيوم المحشر
دققوا في الحساب بالقسط ترتا ... ح البرايا فطالما الظلم صكدّر
فالمليك المحبوب رأس وأنتم ... منه اعضاؤه به تتأثر
والعكرام الثواب أوردة الجسـ ... ـم وماء الحياة منها تفجر

* * *

آل عثمان ان سلطاننا أعـ ... ـظم ملك بنوره تتبصر
هو حامي الدستور حامي الرعايا ... حافظ العهد للعدالة أظهر
فتفانوا في حبه فهو بالاخـ ... ـلاص منّا وبالمحبة أجدر

* * *

أيها النائبون عن هذه الأمـ ... ـة أنتم لها العماد الأكبر
أنتم عارفو البلاد وحاجا ... ت الأهالي وما به تتعمر
أعين الناس نحوكم ناظرات ... فاظهروا للورى بأشرف منظر
لا نريد استرداد ما راح لكن ... حفظ ما عندنا فلا تتهقر
ثُلثا قرن مضى ونحن من الار ... هاق كانت أعصابنا تتحدّر
ثلث قرن ونحن في ظلمات ... بعضها فوق بعضها تتكرر

فخلا تلكم الدياجي نورٌ ... من سنا قادةٍ بجيش مظفر
أنقذونا وكادت الروح تدنو ... للتراقي وصائح الموت زجر
فسجدنا لربنا وشكرنا ... هؤلاء الابطال والحر يشكر
يا ليوث الوغى ويا خير من أسـ ... ـد يا نفوساً كادت من الظلم تهبر
يا أسود الشرى ويا خير من قوّ ... مَ ملكا قد كاد أن يندثر
قد جلوتم لنا عروساً تجلت ... كتجلي بدر السماء وأزهر
وهي حُريةٌ اضاءت ودستو ... رٌ يحفظ الحقوق في الملك يشهر
فعليك السلام يا شوكتٌ منّـ ... ـا تليه تحية تتعطر
انت ادركت ذي الخيانة فانقضـ ... ـت حتى ظفرتَ والملكُ عمر
وعلى الفرقدين ازكى سلام ... بطلي تركيا نيازي وأنور
لا تقولوا قد راحَ مدحتُ عنا ... كُلكم مدحتٌ اذا ما تدبّر
فاتركوا ما مضى وجدوا لما يأ ... تي بحزم النهى وعزم الغضنفر
واستعينوا بالحق دوماً ومهمو ... ما نكم فالنجاح في ذاك اكثر
خير ما ينفع الشعوب ثباتٌ ... واتحاد بعزمه تتحرّر
فهنيأ يا آل عثمان هذا ... يوم عيد للناس عيدٌ فخير
دام سلطاننا ونوابنا والجيش ... والشعب في الهناء الأوفر

* * *

هذه غادةٌ من النيل وافت ... بسناها ودلها تتبختر
غادة زانها حليُّ المعاني ... ومن اللفظ عقد دُرّ وجوهر
أقبلت في بشائر أرختها ... عيدُ عزّ الدستور بالأمن أسفر

سنة ١٣٢٧ ٨٤ ٧٧ ٧٠١ ١٢٤ ٣٤١

ضاق هذا الجزء عن باب الفتاوى وفيه بيان معنى كون الدستور موافقا للشرع وغير ذلك من المسائل فأرجأناه الى الجزء الآتي